مجلة الساورة للدراسات الإنسانية والاجتماعية
ISSN: 2477-9881 EISSN: 2676-2153
المجلد 08 / العـدد:02 (2022)، ص 180- 198

صورة المجال الجغرافي لمنطقة توات على ضوء الرحلات الحجازية المغاربية ما بين القرنين 8-13هـ/14-19م

The Geographical Area of Touat Region in the Light of the Moroccan Hejaz Travels between 8-13 H/ 14-19 AD centuries

د. عبد الله بابا[1*]
[1] جامعة أحمد دراية -أدرار (الجزائر)، abd.baba@univ-adrar.edu.dz

تاريخ الاستلام: 2021/12/08 تاريخ النشر: 2022/12/25

ملخص:

برز مصطلح "توات" كمصطلح جغرافي لمنطقة محددة ضمن الصحراء الكبرى في كتابات الرحالة منذ القرن 14م، غير أنه تبرز معنا صعوبات واضحة في محاولة معرفة الحدود الجغرافية لمنطقة توات، ومن منطلق محاولة الوصول إلى معرفة الحيز الجغرافي لمنطقة توات كان من الأجدر الرجوع إلى ما كتبه هؤلاء الرحالة عن المجال الجغرافي والمجتمع التواتي لكشف جوانب لازالت تطرح الكثير من التساؤلات الموضوعية.

تحاول هذه المداخلة تسليط الضوء على نظرة الآخر من الرحالة إلى هذه البقعة الصحراوية المتميزة بمناخها وتضاريسها وعمرانها، ونقل ما شاهدوه وعاينوه عن قرب من ملاحظات حول طبيعة هذه البيئة المتفردة، خاصة لدى الرحالة المغاربة الذين سجلوا نظرتهم تجاه هذه المنطقة في رحلاتهم الحجية، منهم: السّرج المغربي 1630-1633م، العياشي 1661-1663م، ، البرتلي الولاتي 1789-1791م.

كلمات مفتاحية: توات، الصحراء، الرحلات الحجية، السراج، العياشي، البرتلي الولاتي، التنلاني.

Abstract:

The term 'Touat' first emerged as a geographical concept of a specific region in the Great Desert in the writings of travellers since the 14th century AD. However, with this term comes some obvious difficulties when trying to identify the geographical boundaries of this region, we need to go back to what these travellers have written about the geographical area and the Touat community so that to uncover many aspects, which still highlight many objective questions.

This intervention tries to shed light on the perspective of these travellers about this Saharan area with its distinct climate, typography, and urbanism. It also tries to transfer what these travellers have seen and inspected about the nature of this distinct environment,

* المؤلف المرسل

especially the Moroccan travellers who have marked their perspective towards this region during their pilgrimage travels, , such as: Eseraj El Maghrebi, Al Ayyashi, Al Burtli Al Willati.
Keywords: Touat, Sahara, pilgrimage travels, Eseraj, Al Ayyashi, Al Burtli Al Willati, El Tinlani.

مقدمة:

تشهد الدراسات والأبحاث التي تناولت الصحراء ومن ضمنها توات أن المنطقة برمتها عرفت تعميراً سكانياً منذ العصور الحجرية القديمة، دلت عليه الرسوم الصخرية والأدوات الحجري التي عثر عليها بالمنطقة، وأن مصطلح "توات" كمفهوم جغرافي لمنطقة محددة ضمن الصحراء الكبرى برز في كتابات الرحالة منذ القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) ، غير أنه تبرز معنا صعوبات واضحة في محاولة تحديد ماهية المصطلح اللغوية والاصطلاحية، حيث تعددت الروايات في أصل الكلمة ومعناها، ومثلما اختُلف في تحديد مفهوم التسمية وضبط مصدرها، فإن هذا الاختلاف انتقل أيضاً إلى التحديد الجغرافي الذي يأخذ مناحي متعددة، منها من يرى أن توات تمتد من مقاطعة تسابيت شمالا إلى مقاطعة رڤان جنوباً، ويدعم هذا الاتجاه كل من: السّرج المغربي في رحلته الحجية1630-1633م، والعياشي في رحلته ما بين 1661-1663م. ورأي آخر ينظر إلى أن توات تمتد عبر الواحات الثلاث قورارة، توات، تيدكلت وعلى رأس هذا الرأي بعض المؤرخين المتأخرين، كما أن هناك رأي ثالث آخر ينسب فيه أصحابه تيدكلت إلى توات أو العكس فقط دون تينكورارين وهذا ما نجده عند الرحالة ابن الدين الأغواطي والبرتلي الولاتي.

تأخذ هذه المداخلة قيمتها وأهميتها من خلال الجوانب التي يمكن استنباطها من هذه الرحلات، التي تحمل معلومات واقعية، تلقي الضوء على جوانب هامة تتعلق بالمشهد الجغرافي لمنطقة توات بالوقوف على أهم معالمها الجغرافية وروابطها الحضارية. وعليه تحاول هذه المداخلة استجلاء بعض الحقائق المستقاة من أدب الرحالة، وعليه تكمن الإشكالية في الآتي: ما هي صورة وطبيعة المجال الجغرافي لمنطقة توات على ضوء الرحلات

الحجية المغاربية. ولتوضيح أبعاد الدراسة أكثر يمكن طرح الأسئلة الجزئية التالية: ما هي نظرة الرحالة للمجال الجغرافي التواتي؟ وما هو الأثر الذي خلفته البيئية التواتية في ذهنية الرحالة؟، ولمعالجة الأشكالية المطروحة والتساؤلات اعتمدنا على المنهج التاريخي مع توظيف أداتي التحليل والوصفي للأحداث التاريخية.

2. الرحلات الحجازية العابرة لواحات توات:

1.2 رحلة ابن مليح:

تنسب الرحلة لصاحبها أبا عبد الله محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن محمد القيسي الشهير بالسراج، الملقب بابن مليح، وهو من أهل مدينة مراكش، كان صوفي الطريقة، انطلق في رحلته إلى الحجاز ضمن الركب المغربي المار بتوات، في آخر شهر صفر 1040هـ الموافق ليوم الاثنين 7 أكتوبر1630م(السراج، 1968: أ-د).

1.2 رحلة أبو سالم العياشي:

هو أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر العياشي، من مدينة فاس، ولد سنة 1037هـ/1628م، وتوفي بالطاعون سنة 1090هـ/1679م، أخذ العلم في الزاوية العياشية، دوّن رحلته الحجية وسماها:" ماء الموائد"، كما أن له تآليف عديدة، انطلق العياشي في رحلته صبيحة يوم الخميس 01ربيع الثاني 1072هـ/23 نوفمبر1661م من سجلماسة ماراً بكل من توات، قورارة ورجلان، طرابلس، القاهرة، السويس، الينبع، رابغ، مكة، المدينة المنورة، القدس(الزركلي، 2002: 129)(العياشي، 2006: 29-32).

3.2 رحلة عبد الرحمن بن عمر التنلاني:

هو الشيخ أبي زيد عبد الرحمن بن عمر بن عمر بن معروف بن يوسف التنلاني التواتي ولد سنة 1121هـ/1705م بتنلان، درس على يد الشيخ عمر بن عبد القادر التنلاني، والشيخ عبد الرحمن بن إبراهيم الجنتوري وعلى يد الشيخ عمر بن محمد المصطفى الرقادي والشيخ محمد بن أب المزمري والشيخ أحمد بن صالح السوقي التكروري وعلى يد أبي عبد الله محمد بن على الدرعي، كان أحد أعضاء مجلس الشورى

الأربعة، من مؤلفاته"مختصر السمين في إعراب القرآن"،" مختصر النوادر"، توفى بعد رجوعه من الحج في 29صفر 1189ه/1ماي 1775م(التنلاني، 2008/2009: 25-37). في سنة 1187ه/1773م دعا عبد الرحمن بن عمر التنلاني أهل توات وتيدكلت إلى حج بيت الله بالاستعداد للانطلاق مع ركب الحج التواتي باعتباره شيخ هذا الركب، وقد خرج الركب يوم 10 جمادى الثاني من نفس السنة، وكان انطلاق الركب –حسب نص المخطوط- من تنلان، مارا على محطات وقصور أساسية، نذكر منها: قصر(أنظر التعليق رقم:1) الجديد، الزاوية الرقادية، قصر بوعلي، ثم انتقل الركب إلى منطقة تيدكلت(أنظر التعليق رقم:2)، ثم ليبيا، ثم مصر فالحجاز(التنلاني، دس: در)(بخدا، 2013-2014: 83-84).

4.2 الرحلة المباركة للبرتلي الولاتي:

تنسب الرحلة إلى مؤلفها الحاج محمد البشير بن أبي بكر البرتلي الولاتي الشنقيطي المتوفى سنة 1800م، ينتمي المؤلف إلى قبيلة برتيل التي استوطنت مدينة ولاته، خرج الرحالة البرتلي ضمن الركب الحجازي التكروري من ولاته في صفر سنة 1204ه/1789م، ويقول في افتتاحية المخطوط عن طريق الرحلة المتبع: "هذه رحلة مباركة أذكر فيها إن شاء الله مراحل مسافة طريق الحج من بلاد اتوات إلى الحرمين وكيفيتها في الوعرة والسهولة، وأما ما دون اتوات من المسافة فمعلوم عندنا"(الولاتي، دس: 76) ، وعلية ابتدأ الرحلة من ولاته إلى منطقة أزواد شمال مالي، ثم إلى قرية المأمون ومنها إلى قرية المبروك ثم اتجه الركب شمالا إلى بلاد توات.

3. ذِكْرُ توات في رحلات مغاربية أخرى:

1.3 رحلة ابن بطوطة:

المعروفة باسم"تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" لصاحبها شمس الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي (ت779ه/1377م) خرج من بلاده مسقط رأسه بطنجة سنة 725ه/1325م وطاف لمدة 25 سنة ببلاد المغرب والصحراء

ومصر والشام وفارس والحجاز والعراق والسودان والهند والصين ثم عاد إلى بلاد المغرب وانقطع لخدمة السلطان أبي عنان المريني، واستغرقت رحلته 27 سنة من 1325-1352م(الزركلي، 2002: 235-236).

2.3 رحلة الحسن الوزان(ليون الإفريقي):

هو محمد بن الحسن الوزان الفاسي، ولد سنة 1483م بغرناطة، دَرَس في جامع القرويين، ضمه السلطان محمد الوطاسي إلى رجال بلاطه وأسند إليه مهمات كبيرة، في وقتٍ كان المغرب يشهد هجمات خارجية وانقسامات داخلية متتالية. كانت له رحلات عديدة دبلوماسية وتجارية إلى مناطق عديدة منها: رحلة إلى بلاد السودان، رحلة إلى الأطلس الكبير، رحلة إلى الحجاز، رحلة إلى الأستانة. في سنة 923هـ/1517م أسره قراصنة من الإيطاليين قرب جزيرة جربة وقدموه هدية للبابا ليون العاشر الذي عرف مكانته العلمية فأكرمه وأدخله ضمن خاصته وسماه "جان ليون"، له مؤلفات عديدة أشهرها كتاب"وصف إفريقيا"، توفي سنة1550م(الوزان، 1983: 217-218).

3.3 رحلة الأغواطي:

صاحب الرحلة هو الحاج ابن الدين الأغواطي من مدينة الأغواط، دوّن الرحلة بطلب من وليام هودسون القنصل الأمريكي بالجزائر، والذي تعرف على الأغواطي بين عامي 1825-1829م، أثناء عمله مع القنصل الأمريكي وليام شالر، ويعتقد أن نص الرحلة قد كتب في نهاية سنة 1829م(الأغواطي، 1990: 244).

4. المجال الجغرافي لتوات في أدبيات الرحلات الحجازية:

تبرز معنا صعوبات واضحة في محاولة رسم الخريطة الجغرافية لتوات نظرا لتعدد استعمال هذا المصطلح الجغرافي والحضاري، وعليه يأخذ هذا التحديد اتجاهات متعددة ومتباينة، تجعل الباحث في التاريخ المحلي يتيه في معرفة المجال الجغرافي لتوات، فمرة يجد توات تتسع مع بعض الباحثين، وتضيق مع البعض الآخر، ودفعاً للبس وابتعاداً عن

أي توظيف سياسي للحيز الجغرافي كان لا بد من الرجوع إلى الكتب المصدرية، من أجل الوصول إلى المعرفة الحقيقية لهذا المجال الجغرافي لتوات.

يعد ابن بطوطة المغربي(ت 779هـ/1378م) أول رحالة جاء على ذكر توات معرفاً بها عندما جاءه كتاب السلطان المغربي أبي عنان المريني وهو في مدينة تكدا بالسودان الغربي والذي أمره من خلاله بالمجيء إليه، عندها جهز ابن بطوطة نفسه للسفر إلى المغرب الأقصى مرورا بتوات، ولقطع المسافة بين حاضرة تكدا وتوات قام بشراء جملين ومؤونة تكفيه لمدة 70 يوما وهذا لقطع الطريق الرابط بين تكدا والهقار وصولاً إلى توات، وقد ذكر ابن بطوطة في رحلته أهم القرى التي شدت انتباهه بتوات هي: قرية بودة، التي تميزت بسطحها الرملي مع انتشار السبخات بها(ابن بطوطة، 1997: 277).

وفي رحلة البرتلي الولاتي وصف توات بأن تأتي بعد نهاية الأزواد، وهذا بعدما عزم المسير في طريق الحج التواتي، وتشير الرحلة أن البرتلي مكث في مدينة المبروك خمس ليالٍ خرج منها ركب الحج قاصداً بلاد توات يوم الاثنين سابع جمادى الثانية 1204هـ/1789م، وعرّف لنا موقع توات بأنها تقع في بعد آخر قرية من قرى أزواد، وذلك في قوله:"وخرجنا منه ذاهبين إلى بلاد أتوات ... وهو في آخر قرية من قرى أزواد"(الولاتي، 2020: 85).

وعن تحديد بداية الإقليم من الناحية الشمالية يحدثنا الرحالة ابن مليح السراج المغربي في رحلته الحجية أن دخوله لتوات كان سنة 1040هـ/1630م، وأن أول بلدة بتوات من ناحية الشمال هي قصر برينكان وضعاً بذلك الحدود الشمالية لواحات توات، وجاء وصفه لقصر برينكان كالآتي: "ثم نزلنا لبلد توات بمدشر يعرف ببني أركان أول منزلة من البلاد المذكورة"(السراج، 2006: 29). ونعتقد أن الرحالة السراج قد انبهر بكثرة ثماره وجريان ماءه حتى شبه الأمر بالأنهار، وما ذاك إلا مياه الفقارة وارتفاع منسوب مياهها، ومما جاء في هذا قوله:"بلد طيبة كثيرة الزرع والثمار المختلفة بالجنس والنوع،

ذات عيون وأنهار على مر الليالي والنهار(السراج، 2006: 28-29). وقد حدد لنا ابن مليح المراحل بين توات وما جاورها من المناطق، كالآتي: بين تبلبالة وتوات 13 مرحلة، وفي قرى توات 5 مراحل، وبين توات وفزان 53 مرحلة(السراج، 2006: 142).

أما الرحالة العياشي فيذكر أن تسابيت هي أول عمالة من توات، وهذا يدلنا على أن توات كانت مقسمة إلى مجموعة من العمالات أو المناطق، لكن العياشي لم يحدثنا على إي أساس تم تقسيم العمالات أو المناطق؟ هل على تصنيف قبلي أو صوفي أو سياسي أو على أساس تحالفات قبلية؟، ونص العياشي جاء فيه:"ثم ارتحلنا منها ودخلنا أول عمالة توات، وهي قرى تسابت، وزرنا بأول قرية منها قبر الولي الصالح المتبرك به حياً وميتاً سيدي محمد بن صالح المعروف بعريان الرأس"(العياشي، 2006: 81).

والشيء الإيجابي في رحلة العياشي أنه حدد لنا علاقة توات بمنطقة قورارة، عندما دلّنا على نهاية الأخرى لتوات من الناحية الشمالية الشرقية والدخول في ديار منطقة أوقروت التابعة لعمالة قورارة، وفحوى ما جاء به:"ثم ارتحلنا من توات بعدما لحق بنا جملة ممن يريد الحج من أهلها يوم الخميس السابع من جمادى الأولى، وخلفنا قرى توات وراءنا وعدلنا ذات اليسار إلى بلاد أوكروت"(العياشي، 2006: 80/1). غير أن مقرئ الطائف الشيخ عبد العزيز بن عيسى الوقروتي والذي لقيه العياشي بالطائف(الحجاز) وقد استوطن هناك لمدة تزيد عن 30 سنة، وفي إجازة الشيخ عبد العزيز الوقروتي للعياشي في القراءات العشر، ذكر لنا العياشي بأنه من بلاد تيجورارين لكن شهرته هناك تعرف بـ"التواتي"، وهذا يدلنا علن أن العياشي كان يعرف حدود توات الشمالية، لذلك بيّن بأن الشيخ اشتهر "بالتواتي" ولم يكن من توات، كما نستنتج من هذا الكلام أن توات وشهرتها في هذه المرحلة غطت على الأقاليم المجاورة لها، فعرفت تلك المناطق على أنها جزء من توات، ونص الإجازة جاء فيه:"ولم نلقَ بالطائف أحداً ممن ينتسب إلى علم أو صلاح، سوى الشيخ عبد العزيز الذي نزلنا عنده وأصله من المغرب من بلاد أوكرت من

بلاد تنجورارين، وشهرته بالتواتي ...ولقينا هناك رئيس المقرئين وأستاذ المجودين الشيخ عبد العزيز بن حسن بن عيسى التواتي"(العياشي، 2006: 2/172-173).

أما ابن الدين الأغواطي في رحلته فينحني بنا منحى آخر، حيث أخبرنا أن أولف هي البلدة الرئيسية في توات، وأن لها سلطة على باقي المناطق التواتية، خاصة توات الحناء، ونص الرحلة جاء فيه:"تعتبر أولف البلدة الرئيسية في واحة توات ولها نفوذ على جميع المنطقة، والسلطان فيها له جنود تضرب بين أيديهم الطبول ...وفي غربها تقع قرية أخرى تسمى توات الحناء وتنتج هذه البلاد الحناء، والتمر بكميات وفيرة، كما جاء في رحلة الأغواطي أن توات كانت تحت نفوذ سلطان أولف(الأغواطي، 1990: 257-258) ، وهنا نجد مغالطات جغرافية، تتمثل أساسا في كون أولف هي تابعة لمنطقة تيدكلت وأن البلدات الرئيسية في واحة توات هي تمنطيط وبودة وتيمي وتسابيت، ولغة السكان في غالبها هي العربية وليست الزناتية، إلا بعض القصور القليلة التي تتحدث بالزناتية.

من خلال هذه الرحلات الحجازية يمكن القول: أن الحدود الجنوبية لتوات تنتهي بالدخول إلى منطقة تنزروفت الفاصلة بينها وبين قرى السودان الغربي، ومن الناحية الشمالية تعد تسابيت بداية توات من الناحية الشمالية لمن كان قادما عبر طريق تبلبالة، وأن قصور بلاد أوقروت هي الفاصلة بين توات ومنطقة تينجورارين، ومنطقة تيدكلت.

5. الطرق والممرات الرابطة بين توات والأقاليم المجاورة:

1.5 الطريق من توات إلى السودان الغربي:

تعد الطريق الرابطة بين توات وحواضر السودان الغربي من أصعب الطرق التجارية لانعدام الماء والحياة فيها، مع انتشار اللصوصية وقطاع الطرق، وهذا ما وصفه لنا ابن بطوطة عندما أراد أن يقطع هذه الطريق المفقرة بقوله:"وقصدت السفر إلى توات، ورفعت زاد سبعين ليلة، إذ لا يوجد الطعام فيما بين تكدا وتوات، إنما يوجد اللحم واللبن والسمن يشترى بالأثواب "، أما عن صعوبة الطريق الرابط بين توات والهقار

وأقاليم السودان الغربي يحدثنا فيقول:"ودخلنا منها إلى برية لا عمارة بها ولا ماء ...ووصلنا إلى الموضع الذي يفترق به طريق غات الآخذ إلى الديار المصرية وطريق توات، وهناك أحساء ماء يجري على الحديد فإذا غسل به الثوب الأبيض إسود لونه، وسرنا من هنالك عشرة أيام ووصلنا إلى بلاد هكار... ولقينا أحد كبرائهم فحبس القافلة حتى غرموا له أثواباً وسواها... وسرنا في بلاد هكار شهراً وهي قليلة النبات كثيرة الحجارة طريقها وعر"(ابن بطوطة، 1997: 277/4).

أشار الرحالة البرتلي أيضا إلى طريق ومنطقة تنزروفت الواقعة بين أزواد وتوات على أنها من أرض توات، وكان مما دونه في مشاهداته من معالم حياتية في الطريق منها: آبار مياه "أَشَرَاط ثم آبار تَنْضَضِين وهو مالح وهو آخر بئر ماء قبل الدخول في صحراء تنزروفت، التي يصعب اجتيازها لانعدام مصادر الحياة بها، وعنها يقول:"ودخلنا في مفازة عظيمة الخطر شديدة الحذر، قليل ما تسلكها قافلة إلا ووقع بها ضرر من العطش، ولا سيما إن كان في شدة حر الصيف وما ذلك إلا عدم وجود الماء فيها قطعاً، وأحيانا عدم وجود النبات فيها للدواب، أرض صلبة خشنة غاية متسعة غاية منتشرة، وحتى لو رأيت شيئا أمامك لا تدري أهو جماد أم حيوان، أساكن هو أو متحرك، أمقبل أو مدبر، إلا بعد حين...مستوية لا ارتفاع فيها ولا انخفاض، لا شجر فيها ولا نبات، كأن السماء اختلط على الأرض يَحار فيها منظر الناظر كلما نظر إلى جهة من الجهات كلها كالماشي على وجه البحر ليلاً...وحتى الطيور لا ترى فيها ولا وحش ولا خشاش أرض ولا نملة ولا حيوان ما، وهذا كله مما يفزع السالك بها ويروعه...تسمى تنزروفت"، مكث الركب الحجازي السوداني بصحراء تنزروفت لمدة سبعة أيام، وكان أول مصدر ماء صادفهم عند خروجهم منها هو بئر "والن" الذي قُبر بجانبه الشريف مولاي زيدان من آل السي حمو بلحاج(الولاتي، 2020: 86-87). ونستنتج من النص السابق أن هذه مفازة(تنزروفت) كانت تقطعها القوافل المضرة فصل الصيف، وأن هذا الطريق لم يكن آمنا وذلك أن صحراء تنزروفت مقفرة جدباء لا حياة فيها لانعدام الماء.

2.5 الطريق من توات إلى تيدكلت وبلاد الطوارق:

ذكر السراج أنه بعدما دخل الركب الحجازي بلدة عين صالح في طريق العودة قادما من ليبيا توجه بعد ذلك نحو توات، وبعد عشرة مراحل من السير وصل الركب إلى قصر "أوفران" وهو من قرى توات، أين بات الركب ليلتين ثم توجه صوب مقاطعة تسابيت. وهناك طريق آخر يوصل توات بعين صالح اتخذه شيخ ركب الحج التواتي للوصول إلى المنطقة، وذلك انطلاقا من مقاطعة تيمي مرورا بكل من قصر الجديد، ثم زاوية كنته، ثم زاوية الشيخ المغيلي، ومن هناك قصد الركب منطقة تيدكلت وعين صالح، ومن هناك إلى أرض الطوارق ثم ليبيا(التنلاني، دس: 2-5).

3.5 الطريق من توات إلى الحواضر الشمالية:

ترتبط توات بالحواضر الشمالية للجزائر عبر طريق توات تيميمون (أنظر التعليق رقم:3)، ثم بلاد بني ميزاب، كما ترتبط توات بحواضر المغرب الأقصى عبر تبلبالة ثم درعة، لكن هذه الطرق هي الأخرى لم تخلو من الأخطار الطبيعية والبشرية، فقد حدثنا السراج أن ركب الحج في رجوعه من الحج مكث ليلتين بقصر أوفران التابع لأقليم قورارة، ثم قصد عمالة تسابيت، وهناك بقي الركب لمدة سبعة عشر يوما كاملة من شهر رمضان، وذلك بغرض انتظار الرفيق لقطع ما بقي من الطريق بين توات ودرعة كونه محفوف بالمخاطر، ولم يتحرك الركب إلا بعد أن وفد عليهم رجال من قبيلة الجراوة الذين أرسل في طلبهم، وكان خرج معهم في توديعهم من تسابيت القايد عافة وبعض من إخوته إلى غاية منطقة "فم الخنق" من واد الساورة، وهناك التقوا بالجراوة فرجع بعد ذلك القايد عافة إلى تسابيت(السراج، 2006: 133-135).

ويبدو أن ما كان يخشاه الركب الحجازي من خطر الغزو قد شاهدوه مسبقاً بمنطقة تسابيت عندما مرت عليهم سرية قادمة من صحراء السودان الغربي متوجهة إلى الساقية الحمراء غرضها نهب إبل الشيخ سيدي علي نجل المرابط الشيخ سيد أحمد بن

موسى الكرزازي، لكن لم يتمكنوا من ذلك، وقد التقى الركب مرة أخرى بهذه السرية في بلدة تبلبالت وأقاموا بالقرب منهم، وكانت السرية تتكون من 110 فارس، طلبوا من الركب المؤونة "لأن لهم خمسة وخمسين يوم قطعوها كلها جوعا إلا بماء قليل وتمر"(السراج، 2006: 134).

كما يصف العياشي الطريق من تبلبالت إلى توات بأنه عبارة عن حمادة شاقة المسير قليلة الكلأ للإبل، ويقول في هذا:"ثم ارتحلنا منه وذهبنا في الحماد الذي بين توات والوادي... وهي ثنية في آخر الحماد مشرفة على أول بلاد توات، وما سرنا قط مرحلة مثلها كلالا وجوعا للإبل وقاسيناه يوما قمطريرا وليلة نابغية، والله يكفر بها الزلات ويجعلها آخر ما نلقاه من المشقات(العياشي، 2006: 1/78-79).

6. الحواضر والبلدات الهامة من خلال الرحلات الحجازية:

تنحصر توات في المجال الضيق المحاذي لواد مسعود، حيث تَرْسُمُ توات مع كل من ڤورارة وتيدكلت هلال يتحلق حول هضبة تادميت تأخذ توات وسطه(أعفيف، 2014: 26)، وتشكل العروق معظم الحدود الطبيعية للمنطقة، ففي الشمال الغربي العرق الغربي الكبير، ومن الغرب عرق شاش، ومن الجنوب صحراء تنزروفت، وهضبة مويدر ومن الشرق والشمال الشرقي هضبة تدمايت(جعفري، 2009: 32). وترتسم قصور توات على حافة واد مسعود في شكل سلسلة مترابطة على مسافة تقدر بـ 200كلم، وقد جاء ذكر أشهر المدن والبلدات المذكورة لدى ركب الحجازي والتي كانت تمثل محطة للركب والقوافل التجارية من أجل الاستراحة والتزود بالمؤونة والقيام بعملية البيع والشراء، منها:

1.6 قصر بودة:

والذي ذكره ابن بطوطة عندما وصل إليه قادماً من السودان الغربي، حيث وصف بلدة بودة بأنها قرية كبيرة تمتاز بكثرة الرمال والسباخ والتمور، بقوله: "ثم وصلنا

إلى بودا بضم الباء الموحدة، وهي من أكبر قرى توات، وأرضها رمال وسباخ وتمرها كثير ليس بطيب، لكن أهلها يفضلونه على تمر سجلماسة، ولا زرع بها ولا سمن ولا زيت وإنما يجلب لها ذلك من بلاد المغرب"(ابن بطوطة، 1997: 277/4).

2.6 منطقة تسابيت:

وصف الحسن الوزان مقاطعة تسابيت بأنها عبارة عن أربعة قصور كبرى وقرى عديدة، تقع في صحراء نوميديا على تخوم ليبيا، وهي واقعة على الطريق الرابط ما بين شمال بلاد المغرب والسودان الغربي وفي هذا يقول: "تْسَبِتْ إقليم مأهول في صحراء نوميديا على بعد نحو مائتين وخمسين ميلاً شرق سجلماسة ومائة ميل من الأطلس، يضم أربعة قصور وقرى عديدة في تخوم ليبيا على الطريق المؤدية من فاس وتلمسان إلى مملكة أكدز في بلاد السودان"(الوزان، 1983: 217-218)، وحديث الوازن على أربعة قصور هنا ربما يقصد به المجموعات السكانية الكبرى لواحات توات، لأن القصور هي عبارة عن قصبات منتشرة على حافة واد مسعود وهي تشكل في نفس الوقت قرى سكانية.

3.6 قصر برينكان:

يتبع هذا القصر لمقاطعة تسابيت جاء في رحلة السراج المغربي أن دخوله لتوات كان سنة 1040هـ/1630م، وأول قرية من توات هي قصر برينكان الذي وصفه بقوله: "ثم نزلنا لبلد توات بمدشر يعرف ببني أركان أول منزلة من البلاد المذكورة" أما عن معيشة سكان ونشاطهم الفلاحي، فقد انبهر الرحالة بكثرة ثماره وجريان ماءه حتى شبه الأمر بالأنهار وما ذاك إلا مياه الفقارة وارتفاع منسوب مياهها، ومما جاء في هذا قوله:"بلد طيبة كثيرة الزرع والثمار المختلفة بالجنس والنوع، ذات عيون وأنهار على مر الليالي والنهار(السراج، 2006، 29-28).

4.6 قصر الدغامشة:

نسبه الرحالة ابن مليح إلى منطقة توات بالإشارة إليه بقوله: "ثم انتقلنا لمدشر الدغامشة من البلد المذكورة" والتقى هناك بالشيخ سيدي علي بودربالة، وقال عنه بأنه مشهور بالبركة والزهد والورع(السراج، 2006: 30).

5.6 قصر أقسطن:

نسبه أيضا السراج إلى توات وذلك عندم عدل الركب طريقه إلى منطقة أوقروت، بعدما علم بوجود حجاج يريدون التوجه معهم إلى الحج، وفي ذلك يقول السراج:"ثم انتقلنا إلى لبلاد كسطن وهو مدشر منحرف عن الطريق الجادة، قصدناهم لرغبتهم في التوجه معنا إلى الحج"(السراج، 2006: 30)، ثم توجه الركب بعد ذلك إلى قصر أوقروت والذي عده آخر منطقة في بلاد توات، حيث أقام الركب هناك يوماً واحداً استعداداً للدخول في صحراء ازكر والوصول إلى فزان، في زمن قَدّره السراج بخمسين يوما، ومما ذكره في رحلته عن هذا الطريق:"ثم مرحلة بعل بين هذا المدشر وبين مدشر واوكروت آخر بلاد توات من تلك الناحية أقمنا به يوما للتهيؤ لدخول الصحراء المعروفة بازكر، الذي هو خمسون يوما بإقامتها وظعانها"(السراج، 2006، 30-31).

- ذكر عبد الرحمن بن عمر التنلاني بعض القصور التي كانت تمثل محطة لركب الحج داخل توات منها: تمنطيط والجديد وزاوية كنته وزاوية الشيخ المغيلي ببوعلي(التنلاني، دس: 2-3).

7. الحالة الاجتماعية والنشاط الاقتصادي بواحة توات:

تستغل القوافل التجارية وركاب الحجيج توات للإستراحة والتزود بمختلف المواد الضرورية لمواصلة الطريق، وهذا ما أشار إليه السراج المغربي الذي أخبرنا بأن الركب الحجازي الذي كان فيه ب مكث بقصر برينكان سبعة عشر يوما، استغلها الركب في الاستراحة والاستجمام والتزود بالمواد الضرورية وبيع السلع التي يحملونها معهم، ومما

يذكره الرحالة عن هذا ما نصه: "فأتم بها الركب سبعة عشر يوما في نعمة شاملة وألاء الله عليه متواصلة، وبيع وشراء، وأخذ وعطاء، فيالها من بلدة ما أحسنها جبر الله صدعها، وأدام للمسلمين نفعها(السراج، 2006: 29)، ويدل هذا على أن قصر برينكان كان سوقا تجاريا هاما على الطريق الحجازي والسوداني معا، وهذا لما تميز به من مرافق ضرورية للاستراحة والاستجمام، عليه يمكننا القول أن وصف هذه القرية التي تمتلك كل هذه المؤهلات لا يمكن وصفها "بالمدشر". ومن الشخصيات التكرورية الهامة التي التقى بها السراج في تسابيت والتي كانت في انتظار الركب المغربي، كل من القائد علي بن عبد القادر الشرقي باشا السودان ومعه الفقيه محمد بن أحمد بابا التمبكتي والفقيه محمد بن عبد العزيز الدرعي (أنظر التعليق رقم: 4) وبصحبتهما الشيخ الصوفي أحمد بن محمد السوداني(السراج، 2006: 29).

ونستنتج أيضاً من خلال بقاء ركب العياشي لمدة ستة أيام وأيضا قيامه بتعاملات تجارية كل ذلك يدل على أن واحة توات وعمالة تسابيت كانتا معروفتين لدى ركب الحجيج من صلاحها للاستراحة والبيع والشراء، وفي هذا ما نصه:"وأقمنا بها ستة أيام وبعنا بها خيلنا وما ضعف من إبلنا: واشترينا ما يحتاج إليه من التمر...ووجدنا بها التمر رخيصاً...وغالب أهلها عوام أهل تجارة...وسبب إقامتنا في هذه البلاد في هذه المدة أن كثيراً من الحجاج لما غلا صرف الذهب في تافيلالت أخروا الصرف إلى توات فإن الذهب بها أرخص وكذلك سعر القوت من الزرع والتمر"، ومما لفت نظر العياشي هو سوق تسابيت الكبير الذي يحتوي على العديد من السلع الجنوبية والشمالية، بقوله:"وهذه البلاد هي مجمع القوافل الآتية من تنبكت ومن بلاد أكدز من أطراف السودان ...ويوجد فيها من البضائع والسلع التي تجلب من هناك شيء كثير، والسلع التي تجلب من الغرب مما هو خرج السودان نافقة في هذه البلاد كالخيل وملابس الملف والحرير، فإذا قدم الركب إليها كان فيها سوق حافل"(العياشي، 2006: 79).

ويذكر الأغواطي أن القوافل التجارية المتجهة إلى السودان تتجمع في واحة توات وذلك في بداية السنة، وهم يرتحلون في جماعات كبيرة حتى لا يتعرضوا لهجوم الطوارق، كما بين لنا أهم السلع المصدرة من توات وقورارة إلى السودان بقوله:"وفي مقابل ذلك تصدر توات والقورارة الحرير والحديد والزجاج وأمثالها من السلع"(الأغواطي، 1990: 259).

وعن معيشة السكان وحالتهم الاجتماعية، فقد ذكر الحسن الوزان بأن سكان توات فقراء ويعتمدون في غذائهم على التمر والشعير وهو ما تنتجه بساتينهم، نتيجة لفقر التربة وقلة المياه، وقد شد انتباه الرحالة صورة السكان من حيث اللون وتناسقه مع جمال المرأة التواتية، حيث يصف الحسن الوزان أن غالب لون بشرة السكان هي السمرة ورغم ذلك فأن المرأة جميلة المظهر، وهذه الإشارة تدل على مؤشرات اجتماعية منها: حرية المرأة في الخروج للسقي أو غسل الثياب مكشوفة الوجه، معتنية بجمالها وملابسها، متكشفة على الأجانب، وهو ما انعكس بصورة إيجابية للمرأة من حيث مظهرها الخارجي وانبهاره بها، في قوله:"سكانه فقراء جدا لا تنبت أرضهم غير التمر وقليل من الشعير، بشرتهم سوداء، إلا أن نساءهم جميلات سمراوات"(الوزان، 1983: 133/2).

أتى ابن بطوطة على ذكر غريبة شاهدها لدى سكان قصر بودة عندما لاحظ أكلهم للجراد واصطياده في الصباح الباكر، وهذه العادة ليست دائمة وإنما تأتي مع زحف الجراد على المنطقة، وبالتالي لا بد من محاربته تقليديا بأكله والتشجيع على تخزينه بعد غليه في الماء المضاف إليه الملح ثم تجفيفه حتى يصبح قابلا للتخزين، ونص الرحلة جاء فيه:"وأكل أهلها التمر والجراد، وهو كثير عندهم يختزنونه كما يختزن التمر ويقتاتون به، ويخرجون إلى صيده قبل طلوع الشمس فإنه لا يطير إذ ذاك لأجل البرد(ابن بطوطة، 1997: 277/4).

8. الخاتمة:

في الأخير يمكننا القول أن هذه الرحلات الحجازية قد مثلت لنا مصدرا هاما من مصادر تاريخ توات لا يمكننا الاستغناء عنه، فقد رصدت هذه الرحلات الكثير من المظاهر الجغرافية والاجتماعية والاقتصادية لمنطقة توات، انطلاقاً من نظرتهم الموضوعية تجاه المجتمعات التي تعامل معها الرحالة، ومما خلصت إليه بعد هذه الدراسة جملة من النتائج هي كالآتي:

- من مظاهر السطح التضاريسي التي شدت انتباه الرحالة في توات هي وجود كثبان الرمال وانتشار السباخ وجريان مياه الفقارة بشكل دائم وغزير.

- ارتباط توات بمناطق المجاورة عبر طرق وممرات محفوفة بمخاطر طبيعية (قلة الماء أو انعدامه)، ومخاطر بشرية تتعلق أساساً بقطاع الطرق.

-وجود محطتين أساسيتين لركب الحج بتوات، يلتقي فيها ركب الحج التواتي مع المغربي والتكروري وهي منطقة تسابيت وأقبلي بتدكلت.

- ارتباط توات بالمناطق المجاورة عبر أربعة طرق رئيسية هي: طريق توات أوقروت عين صالح إلى الهقار وليبيا،- طريق توات قورارة إلى حواضر الجزائر الشمالية- طرق توات تنزروفت تكدا وحواضر السوادان الغربي- طريق توات تبلبالة سجلماسة وحواضر بلاد المغرب الأقصى.

- انبهار الرحالة بالحالة النشطة للتجارة بتوات، مع توفر السلع والبضائع المستوردة من الحواضر الشمالية والجنوبية، وذلك رغم وقوع توات في منطقة صحراوية بعيدة.

- اعتماد السكان في غذائهم اليومي على التمر والقمح بشكل أساسي.

- انتشار حالة الفقر لدي غالبية السكان، ومع ذلك كان هناك اهتمام واضح بجانب النظافة الجسمانية، مع اهتمام المرأة التواتية بجمالها الأنثوي.

التعليقات والشروح:

1- القصر: عبارة عن فضاء جغرافي مشترك، يضم مجموعات عشائرية ذات الأصل الواحد، تجمع بينها مصالح اقتصادية واجتماعية وأمنية، ويشتمل القصر على قصبة واحدة أو أكثر، و على مرافق أخرى ضرورية مثل السوق والرحبة تحيط به الواحة التي تضم البساتين وفي محيطها واحة النخيل والمقبرة والضريح. للمزيد انظر: محمد بن سويسي: العمارة الدينية الإسلامية في منطقة توات، تمنطيط نموذجا(من القرن6هـ الى13هـ/12م -19م)، دراسة تاريخية،عمرانية ومعمارية، مذكرة ماجستير في الآثار الإسلامية، إشراف د.عبد العزيز محمود لعرج، معهد الآثار، جامعة الجزائر، 2008/2007، ص37.

2- تيدكلت تعني بالأمازيغية كف اليد أو اليد المفتوحة, ويعرفها البعض بتيدكلت الغربية تمييزا لها عن الشرقية التي هي عين صالح وضواحيها.(قدي، دس: 20-21).

3- للمزيد حول الطريق الرابط بين توات والجزائر المحروسة: انظر رحلة: عبد الرحمن بن أدريس التنلاني التواتي إلى الجزائر العاصمة سنة 1816م. (التنلاني، دس: در).

4- تلميذ الفقيه العلامة أحمد بابا التمبكتي حيث قرأ عليه بمراكش وبعدها انتقل الى درعة ومن هناك التحق بشيخه في السوادان الغربي ولازمه إلى غاية وفاته. (السراج، 2006: 29).

قائمة المصادر والمراجع:

1. **أعفيف، محمد.(2014). *توات مساهمة في دراسة مجتمع الواحات وتاريخها*. المغرب: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة محمد الخامس. الرباط.**
2. **الأغواطي، الحاج ابن الدين.(1990). *رحلة الأغواطي في شمال إفريقية والسودان والدرعية*. تر:أبو القاسم سعد الله. بيروت. لبنان: دار الغرب الإسلامي.**
3. **ابن بطوطة، محمد بن عبد الله.(1997). *رحلة ابن بطوطة (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)*.مج4 تق وتح: عبد الهادي التازي. الرباط. المغرب. مطبعة المعارف الجديدة.**
4. **بخدا، مريم.(2012-2013). *أعلام العائلة التنلانية ودورهم العلمي بإقليم توات خلال القرنين(11-12ه/17-18م)*. مذكرة ماجستير. إش: خير الدين شترة. الجزائر: قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة أدرار.**
5. **التنلاني عبد الرحمن بن أدريس (ت1233ه/1817م): الرحلة إلى الجزائر المحروسة، مخطوط، خزانة كوسام، أدرار، الجزائر.**

6. التنلاني، عبد الرحمن بن عمر.(2009/2008). *فهرسة التواتي*. در وتح: عبد الرحمن بعثمان. مذكرة لنيل شهادة ماجستير في التاريخ الحديث. إشراف أ.د/محمد بن معمر, الجزائر: كلية الآداب واللغات والعلوم الإنسانية، جامعة بشار.

7. التنلاني، عبد الرحمن بن عمر(دس). *الرحلة الحجية*، مخطوط. الجزائر : خزانة بن الوليد، قصر باعبد الله، تيمي، أدرار.

8. جعفري، مبارك.(2009). *العلاقات الثقافية بين توات والسودان الغربي خلال القرن 12ه*. الجزائر: دار السبيل للنشر والتوزيع.

9. الزركلي، خير الدين بن محمود.(2002). *الأعـــلام*، (ط15) : دار العلم للملايين.

10. السراج، محمد بن أحمد القيسي.(1968). *أنس الساري والسارب من أقطار المغارب إلى منتهى الآمال والمآرب سيد الأعاجم والأعارب 1040-1042ه/1630-1633م*. تح وتق: محمد الفاسي. فاس .المغرب : وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصلي, فاس, المغرب.

11. بن سويسي، محمد.(2007-2008). *العمارة الدينية الإسلامية في منطقة توات، تمنطيط نموذجا(من القرن6هـ الى13 هـ/12م -19م)، دراسة تاريخية،عمرانية ومعمارية*. مذكرة ماجستير في الآثار الإسلامية. إشراف د.عبد العزيز محمود لعرج. الجزائر: معهد الآثار. جامعة الجزائر.

12. العياشي، أبو سالم.(2006). *ماء الموائد (رحلة العياشي), 1661 -1663 م*. تح وتق: سعيد الفاضلي وسليمان القرشي. أبو ظبي. الإمارات العربية المتحدة: دار السويدي للنشر.

13. قدي، عبد المجيد.(دس). *صفحات مشرقة تاريخ منطقة أولف. دراسة تاريخية ثقافية اجتماعية*. [د م]: [د ن].

14. الوزان، الحسن ابن محمد (ليون الأفريقي).(1986). *وصف إفريقيا*. تر: محمد حجي ومحمد الأخضر(ط2) .بيروت. لبنان: دار الغرب الإسلامي.

15. الولاتي، الحاج محمد البشير البرتلي.(2020). *الرحلة المباركة للحاج محمد البشير بن أبي بكر البرتلي الولاتي إلى الحرمين الشريفين 1204-1206/1789-1791*. تح: عمرو عبد العزيز منير: دار بريل للنشر.

الملاحق:

الملحق رقم 01:

خريطة توات وقصورها (الجزء الشمالي)

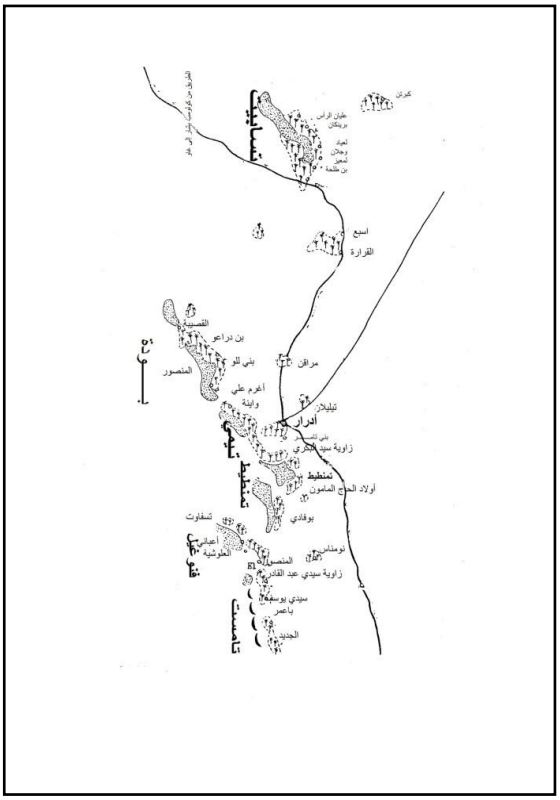

الملحق رقم02:

توات وقصورها (الجزء الجنوبي)